من الأدب الجزائري

عاشقان

بقلم : محمد ديب

ترجمة : فاروق يوسف اسكندر

محمد ديب واحد من كوكبة الكتاب الذين انصهروا في بوتقة الكفاح من أجل تحرير الجزائر .. واستعملوا الفرنسية للتعبير عن أدب نوري وطني خارج نطاق الجزائر ...

وله خمس روايات « بالفرنسية » اولاها واشهرها جميعا « الدار الكبيرة » التي صدرت عام ١٩٥٢ ... وثانيتها في الشهرة .. « من ذا يذكر البحر » ثم « الحريق » و « المتاجرون » و « صيف افريقي » وله مجموعتان من القصص القصيرة هما « في المقهى » و « بابا عكران » وسيصدر له في أوائل العام القادم ديوان شعر بعنوان «الظل الحارس »

ومحمد ديب حين يمسك قلمه ليسجل مأساة عصره كما عاشها في الجزائر يبحث عن أسلوب جديد . اذا يرى أن الاسلوب التقليدي قد يصلح للملاحم وتدوين الوثائق .. ولكنه يرى أن المهم في الوقت الحاضر هو ان نصل الى الاسلوب الجديد الذي يحملنا نهفات الحرب وعواقبها السيئة دون أن يحدثنا الكاتب عن احداث بشعة ويقول : « ان الفظاعة تجهل الجديد .. ولا تعرف سوى المكرار !!! »

ومازال يعيش بتابع انتصارات بلاده باسلوب رائع في رقة أسلوب كامو ومالرو .. !

***

وانصرفا

كان النهار ينحسر عن الشارع . وعلى امتداد الرصيف المقابل .. يتصاعد نفس المارة القلائل ويتقاربون .. ومن بوقهم ترتطم مياه وسحب رقيقة تذهب للسماء دون أن تطمئنه .. وفيما وراء الاشجار الشاحبة والساقين النحيلة . كانت هذه المياه وهذه السحب تتلف بالصمت منازل صغيرة تبدو مهجورة ..

سارا في بادىء الامر دون استعجال واسرعا عندما لاحظا ان الالوان الحمراء والاشعة الذهبية اكتسحت الشارع .

ومن وراء ظهرهما ، ضجة . رأى الترولي باص .. حتى كاد يلمسهما . وحجب عنهما الشارع . فاقدمها . بحيث الا يفوتهما . انه آخر ترولي .

وصل الترولي الى المحطة . نزل منه

الركاب . كانت نعيمة معلقة بذراع مصيل وتراقص على كعبيها . اما هو فقد ضم كوعها الى جسده ، في حركة تلقائية ، يساعدها على الصعود . كانت هي تضربه احيانا على وجهه بشعرها .

تحرك الترولي في انين طويل . مقعر مصيل اولا على السلم ، وفي اندفاعه رفع نعيمة ، فاذا هي بجواره وقد تعالت ضحكاتها .

دفعتها حركة الترولي نحوه . فرمت يديها الى الامام لتحتمي من وطأة الصدمة وظلت تضحك . وتعثر الترولي من جديد وامسكت نعيمة في هذه المرة بمعصم الشاب بينما زادت سرعة الترولي .

وتعلت انظارهما بما على الحقيبة التي كانت تحملها في يدها . وهمهمت —

— لاتخشى !!

وابتسمت ثم نظرت الى جهة اخرى :

— اني لا اقوم بذلك لاول مرة .

اتلفه شعور بعرفان الجميل ، وبدا الرجال والنساء من حولهم غير مكترثين وكأنهم شهود من حجر .

كانت نعيمة تضم الحقيبة الى صدرها ، وقد اشتد ذراعها عليها .

وتوالت محطات الترولي الذي كان يتجه الى وسط المدينة . واخذ مصيل يمرق نحو حالة من الذهول والدهشة لم يستسلم اليها تماما بمساعدة وجود نعيمة وطمأن نفسه قائلا : (لاخطر من ان انساق وراء ذلك) .. وتمالك نفسه وقد اصبح على حافة الهاوية .. ولكنه كان على يقين من انه سيقفز فيها — في لحظة واخرى .

واحس فجأة ان الترولي قد توقف عن السير .. وان العالم ارتداد كثافة .. انسياب الاشياء من حول مصيل يلمه في دوامة احاطت حواسه بضباب كثيف .. انها تمهد لموجة من الدوار ان تستحيذ قبل ان تجرفه .. وضم حقيبه ثم فتحها . كان الترولي مازال يسير .. ثم قال محدثا نفسه : « لن اقول . لن اقول كل مالتطره من الحياة، لن اقول كل مااود ان افعله .. »

كان الضوء قد انتشر وتوهج . بعض الاشجار في الحدائق المعتزة في المدينة كأشجار الحور تشع بريقا . وتحوم في المدينة بوادر حريق كبير .

واعتصم مصيل بنعيمة وداع لظلال بعيده .. لمنزل ولامرأة عجوز .. مدل جهودا للتعرف عليهما .. في وسط المنزل شجرة خوخ متفرعة الاغصان.. وفي ركن من الاركان كرمة تتسلق السطح . انفرد ذراعها على فناء الدار ووالداه واقفان كل على مقربة من الآخر .. وعلى بعد من الآخر ! هما !! ماذا يريدان ؟

وكأنهما ارادا الافصاح عن شيء ، اي شيء ! شيء حي يبحث عنه .. ويشعر انه يطوقه دون ان يعرفه — ولكن لم يمنح احدهما ماه . هل يقدما اخيرا على الكلام ؟

كان يتصنت في انتباه . ثم ادرك انهما قد تكلما . في اي لحظة ؟ الم يمهما وتصلب في مكانه وهو لا يدري .

وهبت ريح باردة سوداء على المنطقة الدامئة التي اشتعلت في نفسه . وتلاشت الظلال ، انه لايدري .. من اية مدينة عتيقة تركها وراءه . انتفت هذه الظلال . وخلفت الظلال السفلية من اللهب تتراقص امام عينيه .

كانت المدينة تتدحرج في اتجاه البحر وتدور في بطء حول نفسها . وتجرف

الباس والحدائق وكانت اشجارها منتصبة كشعر القتاد . ومن ورائهما انعكاس الضوء الشاحب على الخليج . كان البحر يجمع ما يبقى من ضوء ، في بؤرة بيضاء مركزة . وكان الدوران المستمر يحرف هذه البؤرة المتأججة التي تتجلى بطريقة متقطعة . فما معنى بطن والده له وتعذيبه . فهما لم يتعودا رؤيتهما مما ترى هل بمهمته ؟

وعلى كل تكيف تؤاخذهما على ذلك ؟ انهما لايعرفان الطريق الذي يسلكه الابناء على مرأى منهما ..

وسعك سبيل لهذه الفكرة ..

وبادلته نعيمة الضحك ..

وارتشفت من فوقها .. سماء سبتمبر .. وكانت شديدة الصفاء والاكتمال .

وحسته بالسعادة . لقد عاوده شروده .. ومن جديد واجهت رجلا مجهولا لها .. ومجاة واجهت في قلق لغزا غاريا .. ومن جديد انتصب امامها الرجل الاعزل .. واكتشفت في نفسها مشاعر خوف مبهم وافكار مظلمة .. وكانما تحركت حركة غير موفقة فضلت في تيه . تحدرت عليها الرؤية واخذت تتحسس طريقها ..

هذا الرجل الصانع ليس هو فضيل لقد تمت عملية الاستبدال في لمح البصر ولم تلحظها حال وقوعها ..

وظلت بمكشفة على هذا الشيء لاتعرف الى اية جهة تتجه .. لقد ارتبكت لتصرفه .. واخذت تفكر في حذر .. تسائل نفسها :

« ترى من ذا الذي يقتفيه ؟ من ذا يوجه الماساة ؟ انا ؟ انا ؟ لسوف اكتشف حقيقة نفسه .. فلتمش حتما الى حتف لاكتشف حقيقة نفسه ..

وفكرت .. ترى هل تطلعه على خواطرها ؟ لا .. لقد قدرت مدى جرأتها ان هي اقدمت على ذلك ، فامتنعت عن الكلام . لسوف يلمه ذلك عند انتهاء المهمة الموكولة اليهما ..

كانت في الوقت نفسه تفهم وترفض ان تفهم ؟ ليست المرأة وحدها سبب هذه الثمرة المشؤومة في فؤاده امسها سحر التضحية القطرى ؛ من اسبابها. ايضا لسوف تنجح هي بفضل حبها له في تحطيم المرأة المعتمة حيث يتساءل فضيل نفسه .. ولن يصرفه هذا الشيء عنها .

قالت لنفسها « .. هل سيرى احدنا الآخر بعد مرور هذه اللحظة .. بعد مرور هذا اليوم ؟ ربما لن نتقابل ابدا بعد اليوم . »

وترنحت نظراتها وشردت ولم تلق داخل القرولي سوى بوجوه مغلقة . وجوه من صوان : رجال ونساء تنقل على وجوههم نفس التعبيرات المتآكلة. وتنقر من واحد الى آخر .. وجوه كلها مطمئنة .. لا تعبر الا عن الخوف من الموت، او من رعبة اصحابها الكامنة في القتل .وانتهرت نعيمة مرصة احدى رحلات القرولي .فاقتربت من فضيل لتحتمي من البرد الذي تشعه اشياء هذه الوجوه التي تحاكي الاقنعة وارتعش كل بدنها وفي نفس الوقت تلاشت الروعة التي امتلأ بها الجو والبحر والمدينة .. واصبح الجو باهتا رماديا . واخذ العالم يتساقط في رماد المساء .

كان فضيل يراقب الركاب الآخرين .. مرأى فيهم تماثيل محترقة .. ألقت بها كارثة الغسق .. وكانت كل التماثيل صامتة .. لقد قالت : « عما قريب »

نظر الى رقم ساعته الاوحد . لن يتقضي طويل وقت قبل ان يصل عقربا

الساعة اليه .. وعن معـــــرة عن نفسه ..

ورفعت هي أيضا عينيهـا نحوه .. وسقطت اشعتها المسحوبة على ذراعه بكل قوة .

وارتسمت شبه ابتسامة على وجه نصيل . انفرجت لها ملامحه . وكان ذلك كافيا .. لتكتشف نعيمة فيه وجه الغلام الكبير الذي عرفته في كلـــية الحقوق بالجامعة .. وامتلأت رعشـــة جديدة . وتصلبت .. وحاولت النطق بثمة كلمات طارت على بالها .. قالت :

ـ انت ذاهبة الى هناك ؟ .

مال عليها واجابه :

نعم .. انا ذاهب ..

وعندما مرمل الترولي تأرجحت كتلته المتضخمة ونزل بعض الركاب . ونزل أيضا نصيل ونعيمة ..

كان يبدو ان احدهمـــا لا يكترث بالآخر او يحترمه . كانت نعيمة تتعقب نصيل من على بعد ، مراعية ألا يتوه عن بصرها ..

وشق نصيل طريقه وســـط الزحام وسقها . ومشت وراءه نعيمة . وعدد مشيتها وشعورها بالارض العـــلية تحت قدميها ما يشبه الهبـــوط في نفسها .

وكان الليل قد اطبق على الحي الاكبر من المدينة . ولكن واجهات المحلات التي اضاءت من الداخل بمجرة لا تعرفها .. سطعت متألقة محددت الاضواء معـالم الشوارع ماكنها . او ما يشبه الشوارع وعربات الترام والسيارات التي أوقدت انوارها على ما فيها من الركاب . التقطت هذه الاضواء في لمح البصر .

كانت المصـــابيح وحروف النيون المرتشمة تحترق لموت المدينة . والمارة

انفسهم معدوا مقاســـكهم اكثر واكثر وكأنهم ظلال او اشـــباح فقط . احدث تداخل وتتكاثر وسافر بطريقه آليه . كانوا شاردين ومع ذلك فقد دبت فيهم حياة رهيبة .

وهبطت على نصيل راحة نفسيه عجيبه واقتنع لحظة انه يستطيع اذا ما اراد . ان يســـير بعض المشين في حركة آلية وسط هذه الجموع الكاذبة وترك نفسه للتيار يحمله . ومر بأشكال غير واضحة وواجهات مـــــاء ومرايا ضخمة وكأنه لا يحتاج الى ان يفكر او يرى ..

وكانت نعيمة لا تزال تتعقبه . من بعد .. ظلال واضـــواء متكسرة ، ثم ظلال وانفجارات موكرات من نار . تحول وتدور . وكلما اقتربت من (فندق البريد) ازدادت الجماهير والمدينـــة كثافة . وخشع نصيل لقواها المتعددة . تجدبه وتدعمه .. وسأل نصيل اليها وكأنه جسم غريب .. وعانى من متـــاومات غامضة معقدة . أرادت ابعـــاده عن الطريق .. وسأل نفسه قائلا

ـ « ترى هل تتمـــكن نعيمة من تعقبي ؟ »

وكانت هذه الفـــكرة هي النقطة التي توجهه والنور الذي يقصـــده ... انه لايستطيع ان يلتفت الى الوراء .. يجب ان تظل انظاره ثابتة امامه . وثبتت خواطره حول هذه الفكرة

وخطر بباله ان باقي نظـــرة الى ساعته لاداعي للاستعجال او الالتفات .. فمجرد ان طارق نعيمة احـــدث المدينة المفترســـة تطوقه . وهوى في القراع المتعطش المفترس لكل انســـان اعزل . وتقلعه فيه .

مر معتم من البشر في كل خطـــوة

يحمرون ، مع وجوه الناس كالامعة بجرمها نار لا يقهر . وكان المستحيل التقاط تعبيراتها او تماثل العطرات معها كانت اقسى متداخلة في تكرار لا يتبدل تحجرت وعيونها مفتوحة كانت الوجوه عرقى في الشارع .. وحدث نفسه قائلا اية رحلة هذه التي اقدمت عليها أ .. وكانت وجوه النساء تتجلى من وقت لوقت من هذا البحر المتلاطم وتبقى على السطح فترة اطول . وجوه نساء جميلات ذات ملامح صارمة ، اخذت تراقب بتأمل في اصرار .. ثم انتهى بها الامر الى الزوال كالاحرفات ، كل الاحرياتواحتفظ بتأمل لحظة بهذهالرؤية العابرة . من أين اتت هذه الوجوه القاسية او الرقيقة ذات العيون البراقة الجامدة التي لاتتجاوب مع شيء . الى اين تتجه ومن اي منبع أتت . وهبجت به هذه الوجوه جرحا يزرف دما دون ان يتوقف ..

كانت تعبة لا تزال تتعقبه ..

وكانت عربات الترام المضاءة من الداخل تمرق المدينة بصريرها الحاد . وتوامدت العربات في حركة متواليده ومتقطعة . وخرجت من الليل دون توقف دائمة كلشيء امامها . والمارة ملتصقون بواجهات المحلاتتحوق الارصفة المزدحمة ولم يبق قليل من هؤلاء الرجال والنساء سوى انطباعات مشوهة لرؤوس لاعيون ولا ملامح لها ، كتلك الرؤوس التي تراها في الاحلام . وتجمع المارة على عجل متجمعوا مشفته . وحرروا جسده من جهد المشي ، فاخذ يفكر في دقة ووضوح .

وقال لنفسه : حتى النهاية . سأذهب حتى النهاية . في آخر شوط من النار المتأججة في موسمها .

وتوقف ، لقد وصل الى المكان المعين وانتظر .

لم ينتظر طويلا ، فقد لحقت به تعبة كانت تنتظر بعيدا . وتنحت الحقيبة . وخطت خطوة . واصطدمت بالشاب وكانها لا تراه . ودست في يده السلاح واحس بصل ببرودته في يده . وطواه في الحال في جيب سترته الايسر ، من الداخل ، على قلبه . واستدارت معبة في حركة آلية وواصلت سيرها وكان جسدها كله يراقب الناس من حولها . لا احد يقتفي اثرها . وتوقفت مجاة وكانها تذكرت شيئا . وعادت من حيث اتت تراقب المارة بطرف عينها . وكان قلبها يضرب ضربات نوبة . يجب ان تظل هادئة طبيعية . مسيطرة على نفسها . وتحرك في اتجاهها . وتعرف عليها وسط الزحام . واخذت تردد : « يجب الا اراه . وجوده لايعني اكثر من وجود اي انسان آخر في الشارع ... » . ثم واجه كل منهما الآخر في لحظات . يجب الا تحطاه خطوة ثم خطوتان . ثم ثلاث خطوات وارتبكت فلم تعرف من اين تمر على يمينه ام على يساره . وهو ايضا ارتبك ولم يعرف .

— معذرة يا سيدي .

— معذرة .

ومرت بعد ان سلمته التعليمات البديهية وعبرت الى الرصيف الآخر . ووصل هو سيره . وجرت مسرعة . سلكت شارعا جانبيا . لتلتقي به في هذه المرة لامن الخلف بل من الامام . وفي مكان يبعد عن الحانة التي تنتظر القتيل .

ودون وعي منه ويعمل تلقائي احد بعد خطواته . خطـوة ، خطوتان .. ثلاث خطوات.وكأنه تقنية طائرة ذات سرعة تجهل الزمن ، وقل من امكنته دون توقف .. خطـــوة .. خطوتان « ثلاث » .. اربع . هنا لقد وصل . واحد . اثنان . ثلاثة .. وانترع سلم القبلة الأولى . وقدمها .. اربعة .. القبلة الثانية .. انفجرت الاولى .. خمسة .. ستة . وارتفعت اصوات المرايا المتناثرة سراح . عويل . سبعة صحيح . اربع الشارع من ضغط الهواء ثمانية . تسعة .. عشرة .. سباق جنوني ، قذف بالناس من كل اتجاه وحتى بعد : عشرة .. احدى عشرة .. وانطلقت الناس بداخل المحلات والبيوت والممرات وقد اصبحت مخابىء من صنع العناية الالهية ..

وبقي الشارع خاليا .. خاليا تماما الى مسافة بعيدة . توقفت الحيـــاة وتوقفت حركة المـــرور .. والحـــافة وسطها متاجع دماء ، ومرايا مهشمة وارتفعت صيحات استنجاد وصرخات احتضار . ولكن سرعان ما سيتلف هذه الاصوات . وهوى على الدائرة المنتشرة صمت عميق .

ومن خلال صمت لا يعني ترجـــح الفضاء المرصع بآلاف الاصـــواء . من طرف الى الآخر . وكأن قلب المدينة قد تهشم .

وانصرف فصيل وهو يترنح .

وبعد عشرة ، عشرة طويلة جدا . دوى صوت عيار ناري اعزل . وقفة قصيرة ثم دوت اعيره اخرى . وطرقت الليل طلقات اخرى من مدفع رشـــاش . واخترقت الليل في مكان ما مجموعة من السيارات ، واسرعت من جميع الطرق سعيرة عربات الحرب .

وفي حركة ارتداد عنيفـــة . احدث الجماهير تعود الى الخلف . وصـــوب بعض المتحمسين المحمولين ايديهم واطلقوا نيرانهـــا . وتقوقعهم مشدودة الى الامام . جماعات صامتة . وســـاء تمكن بالفعـــل شديد .. وتلم بعض رجال الامن والجنود وجنـــود المظلات بتطويق جميع المنافذ . ومن الامام ، ومن الخلف ، وعلى كل الشـــوارع الجانبية ، سيارات عربات الجيـــب لا تكف عن العويل امعـــا تحمل جنود وطوقهم الجسور وضـــاق . وتثقل الناس الامر من طلب خاطر .

بلغ فصيل الرصيف الاخر ضـــمن الجماهير الهـــاربة ، عاد الى الوراء وجرى لمسافة بضـــعة امتار . ثم دار حول نهاية الشارع المحاور ذات الزاويه الحادة . ووصـــل الى مفترق طرق . واكتشف ثغرة على يســـاره قصيرة . وسعد ونشاطا ومشي مشيـــا طبيعيا . وتعثرها وتطرانه مشتة عليها . ونسي كل شيء .

بين حين وحين ، كان يشعر بضرورة بذل جهد لوضع قدم امام الآخر . وانتابه خمول عام . ولكنه لم يتـــالم . وانثقل بدنه عبق ســـحيف . واخذ يتقدم بصعوبة متزايدة . كان يجد مشقة في تخليص نعلي حـــذائه من الارض التي يمشي عليها وكأنهـــا صارت قطعا وتحول الجو الى جليد ومع نهاية الطريق بدا امامه لهيب ضخم يتراقص . انهـــا نهاية .. الهواء من حولها متوهج .. فهل يجد من نفسه القوة ليضـــرب بها ؟ امر لا بد منه .. لا بد من المشي . لا بد من المشي خطوة . ثم خطوة اخرى

من أن جنه عساه يلحق بها ! .. كانت تنتظره لا تتحرك .. ثم غيرت مكانها في بطء وابتسمت فعلا عن ذلك .. كانت تقترب أحيانا من سلم الزمان وتبعد به أحيانا أخرى . وود لو استطاع أن يصيح بكل قواه :

ـ « يا نعيمة !! »

ولكنه عدل عن ذلك واندفعت الميزان كأنها نهار جديد نشر بياضه حول المدينة المذهولة والليل المتواصل . وتألق النهار القاتل دون امتداء . في غير وضوح . وترنح فصيل . واستند الى جدار ومال الى الامام جاحظ العينين .. ثم توقف لاهثا . وتأمل نعيمة .. مراها واقفة في حديقة ملاء واسعة في طرف الشارع وقد احاط بها اللهب .. وانتشرت النيران ..

وارتجف .. اراد مواصلة سيره والالتحاق بها ايا كان الثمن . ورمصت ساقاه ان تحمله في هذه المرة ..

فاعتاص عليه . وظل مغروسا في مكانه يتميل متحيرا . وقد نسي الوقت الذي يمر ثم حرك قدميه وحاول رفعهما وراد يمشي في اتجاه نعيمة واحد جسده يذوب ويسيل والظلال تفترسه متخلفة من ورائه . واحدث المسافة التي تفصل بينه وبين نعيمة تتضاءل .. وانشق الفضاء عن نقاء نفسه .. وهي واقفة محل تمثلت متوهجة انتصبت نبية خشبية واحدة شعثه عارية ..

واحدث الدمية الخشبية تراقب قدومه الى ما لا نهاية ... يا للخجل !!

وادرك فصيل ما حدث له .. لم يخف ولم يفرح .

كان لا يتألم . انه لا يهتم ولا يستطيع الاهتمام بغير هذا الضوء الذي يتسع جرسه .

كان لا يزال يستند الى جدار الحديقة ويراقب الدمية الخشبية وحاول ان يخطو خطوة واحدة . فتساقط الدمية على وجهها .. خواطر .. خواطر لا آخر لها .. تسير على غير هدى .. في بطء يجمع الى الهذيان وقد تحالفت وطوقته الخواطر .. وطوقته المدينة بأسوار دائرية .. أهذا هو الموت ؟

وهمس في أذنه صوت نعيمة قائلا :

ـ فصيل .. ماذا بك ؟

ووصلت الفتاة من خلفه ، لا من أمامه « أعني النهاية » لم يرها وهي عائدة . وظن انه يسمع .. انه يسيقع في الحال .. ولم يقع .. واندهش !

ـ لقد أصبت .

ظن انه ينطق بهذه الكلمات . وكلمت نعيمة مرحة .

ـ ماذا بك ؟

وتشهق في صوت عال :

ـ لقد أصبت .. خذي وانصرفي .

ـ ماذا ؟ أحد ؟

ـ السلاح .. السلاح الذي أحمله .

ـ لا !!

ـ خذي وانصرفي . أرجوك .

ـ لا !! اسمع !

ـ خذي .

وكلمت نعيمة اضطرابها . وتعلقت على الضعف الذي يهش ساقها . ووقفت الى جانبه كتفا الى كتف .

وقالت بموسيقى في نفس واحد :

« اسمع . ضع ذراعك هنا على . (وأمسكت) استند الي . امش معي .. نحن عاشقان ..

ومشي معها . وارخت المعية اعلافها من حولهما بعد ان بدت لمحطة وكانها تريد احكام تطويقهما . وامتدت الشوارع هادئة في شبه البراءة ..

وسارا في بطء . وقد احاطها بذراعه واسندته هي عند خصره . كان لايرى سببا للمشي ولا يعرف لهما غايه . لا شيء ولا احد في اي مكان ينتظرهما. فالى اين مسيرهما ؟ ولكن ما اهمية ذلك؟ لقد عادت معية ، ودعته للمشي وهو لا يحمل بشيء غير ذلك .

العشاق لايسرعون ابدا . كان المارة قليلين يمرون في حذر .. وتساءلت من خلفهما سوداء ، يحيرتها دوي طلقات نارية .. وواصلا سيرهما دون ان يهتما بشيء وكأن ذلك لا يعنيهما .

وفجاة ، سمعتهما سيارة حربية .. وانتشر الجنود . واعراد قوات الامن في الشارع . وايقنت معية ان المهديد يلاحقهما . فالى متى يستطيعان السير دون اثارة الظنون ؟

والتقيا بسيارة يحمله بجنود المطلات . واخذ الجنود يتفحصون بهما..

ودارت معية الى اليمين دون ان تغير الرصيف . وسرعت وقد انهكها مابذلته من جهد . واسندت معية الى واجهة منزل .. والتصقت به وداعبته . هكذا يمكنها ان تستريح قليلا على حين تنتظر ان تتحرك العربات .

والآن اين تذهب ؟ .. في اي اتجاه ؟

هي وحدها تعرف ذلك . هي وحدها ستخرجه وتخرج نفسها من هذا المازق. ومالت على معية تحدثه وتساله ولم تهتد الى سؤال واحد . وايقنت الا جدوى من كل ذلك . كانت راسه مدلاة على صدره . ولا يسمع له اي صوت . وحمل اليها انه فقد وعيه .

وبعد فترة سحبته . وعبرت الطريق واستقلتهما حارة معتمة تؤدي الى الميناء والى لامكان اذا لازمهما الحظ . وامتلات معية اطمئنانا ملا حد الفرح تقريبا . ويبدو ان معية عاد اليه وعيه واحد يناوه في عمق ... عربات الجيب تجول في اصرار عبر الشوارع المجاورة .. ان رجال البوليس يبحثون انهم لم يبحثوا بعد بالقدر الكافي .

وفي هذه اللحظة رات معية دورية تقترب في بطء وحذر . وارست هي ومعية نحو باب مغلق واسندته الى احد مصراعيه عند ركن الباب . ودنت الدورية منهما وامسكت الضابط راس رفيقها بين يديها ، وحدقت وجهه نحو وجهها وهمست في استعطاف شديد .

ـ قتلني يا حبيبي .. قتلني . نظر الى انظر !!

ووضعت شفتها على شفتي المغمى. ولكن شفتيه لم تشعرا بشيء . وضغطت عليهما ضغط عنيفا قليلا وكانه لم يتعرف عليها . ولكن ادركتها بعد لحظة احاطة خافتة ، جاءت من بعيد ، من شفتي المغمى وبلغ مسامعها شيء اشبه بالهمس ، شيء ارتبكت له واضطربت بينما كان الهمس يغوص في صدرها .

وقالت لاهثة :

ـ « اني لك !! »

وتنحنح احد جنود الدورية

ـ احم .. احم .. !!

وقلده الاخرون وفي صوت واحد

ـ احم .. احم !!

واحتكوا بهما ، ثم دلفوا في الليل ولم يبق منهم في المنطقة سوى ظلال

طرقات فيها القوة ! واختفى مجاة كل شعور بالخوف وتلاشى . لقد زال كل خطر !!

وحاول ان يسكتهما صوت جاءهما من الطابق الثانى من احد المنازل !

— ايها العاشقان اهذا وقت مناسب للقبلات ! هذا امر يتعلق به . انصرفا من هنا !!

وانصرفا فى هدوء ..

مشيا بعض الوقت . كانت مصيبة لاتدرى اين تذهب . فقد كان من المستحيل التوجه الى المخبأ المتفق عليه. واحد جسد قصير يتثاقل مع مرور كل لحظة . وبدلت مشى وسعها لمنعه من السقوط . ان ساقيها ترتعشان . ولو استمر ذلك لانحنت ركبتاها .

وقالت فى صوت منخفض .

— باقصير .. الا تستطيع المشى ؟ ولم يجب بشىء .

— لم لاتحاول أن تخطو قليلا .

وسعد الفتى شهيدة طويلة ..

واضطرت الى التوقف عن السير . كان يبدو لها انها تسحب جسدا منهك القوى . جسدا بدون حياة . فكيف تسير به ؟ هل هذا ممكن فى تلك الظروف ؟

وتدبرت الامر لحظة . وتمالكت نفسها وتعلقت على صدرها وعادت الى المشى . وقررت من الآن الا تلاحظ تصرفاتها أو تراقبها . فالابواب كلها موصدة والنوافذ مغلقة .. وكانت أضلعها المبردة ترتطم فى صدرها وتلهب رئتيها . وتقدمت وهى تراقب فى شراسة الشارع من حولها . ولمعت قمة منحدر يصل مباشرة الى الميناء . انه خال تماما — والمكان موحش . وكأنهما خارج العالم . ورطوبة الليل مشبعة برائحة السمك والقطران والمازوت القوية المنبعثة من البحر الحمى .. وهى أماكن متناعدة .. تخترق الظلام دون ان تضيئه مصابيح مرتفعة مغروسة على مسافات منتظمة .. كانت ترسم عبر الشارع طريقا وهميا. تتعاير فيه مثاقل مشتعلة لا آخر لها . وتأملت معصية الشرار المعلق فى حبال البحر. وادركت مدى مرارتها الشاسعة.

كبت يأسها ، ولم تتردد طويلا ، وقررت مواصلة السير قدما على امتداد المنحدر — ربما إكتشفت فى أسفل الطريق ، فى اعماق المخازن السوداء ركنا امينا تتوارى فيه فى انتظار الصباح .

واهتزت الارض فى هذه اللحظة وظهر من موقفهما قطار مصحوب بصفير لايبشر بالخير وتلاشت كل هذه المظاهر غير الواضحة بما تشمله من عمارات وقطع ارض مهجورة وارصفة وحواجز بحرية. وتسربت عربات القافلة واحدة واحدة. واختفى القطار فى ممر معتم . ولم يبق منه سوى بريق ممرجات الخطوط الحديدية اللامعة .. واركزت على النور وأسندت قصير بيدها اليمنى واخذت تهبط المنحدر فى خطوات قصيرة .

لم تسر اكثر من عشرين مترا واذا بكشاف مسرع جاء يلتقى بهما واسقط اشعته عليهما وتسلطت فى سرعة مذهلة .. عين ضخمة بشعة من الهواء. وكأنها تترا فى صفحة الغيب .. صوبها متوحش يخترق فى شبه عمياء . صوبا اشعع المدينة كلها ، وابتلع الليل كله ..

وظلت تعيسة أن هناك من يصيح !

— ابرزا البطاقة الشخصية !

ولكن لم يكن هناك عيون غير هذه العين ترشقهما بشعاعها المتحجر !!